الصبر سفينة النجاة

أحمد الجوهري عبد الجواد

شبكة الألوكة
www.alukah.net


شبكة الألوكة
www.alukah.net

الصبر. سفينة النجاة

أبو حفص

أحمد الجوهري عبد الجواد

المقدمة

الحمد لله الذي خلق فسوّى، وقدر فهدى، وأغنى وأقنى، وجعلنا من خير أمة تأمر وتنهى، والصلاة والسلام على خير الورى، وما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى.

صلى عليه الله ما جنَّ الدُّجى *** وما جَرَتْ في فَلَكٍ شمسُ الضحى

أما بعد، لو أردنا أن نصف العصر الذي نعيشه بكلمة واحدة، لقلنا هو: عصر الصبر، فكلّ إنسان يعيش فيه يحتاج إلى الصبر، الكبير والصغير، الرجل والمرأة، الغني والفقير، العازب والمتزوج، الموظف والمدير، الداعية والعالم، الحاكم والمحكوم ... إلخ الجميع يحتاج إلى الصبر، من كان وأين كان، في ميادين العلم والعبادة أو في ميادين الجهاد والدعوة، أو في ميادين العطاء والتضحية، أو في ميادين الحياة والكفاح.

الجميع يحتاجون إلى الصبر، في كل الميادين، ذلك الخلق المهمّ في الحياة عامة، والأهمّ في حياتنا هذه خاصة، ذلك أنّ كثيرًا من أحداث وحوادث هذا العصر تقعد بهمّة الإنسان عن السير إلى الأمام؛ غلاء أسعار، وكثرة أمراض، وشيوع الموت الذي يذهب بالأحباب، وانتشار الحروب وتوالي الأزمات .. إلخ، وجميعها تدفع الإنسان إلى الجزع والسخط والتشكي، ومن ثم تضيق النّفس، وتقلق الروح، ويشيع اليأس، وتسودّ الحياة في عيون أصحابها.

إنّ الصبر سلاح المؤمن في هذه الأحوال كلّها، فحين يبتلى الإنسان في بدنه، أو ماله، أو أهله، أو مجتمعه، يحتاج لا شك إلى صبر ومعاناة.

فالحمد لله الذي جعلنا مؤمنين، وجعل الصبر خلقًا إيمانيًّا نؤجر على التمسك به، بل جعله من تمام توحيد العبد ربه وذلك بأن يصبر على العمل بطاعته، ويصبر على البعد عن معصيته، ويصبر على أقداره؛ كل ذلك تقربًا إليه سبحانه، ورجاء لثوابه، وخوفًا من عقابه.

إنّ الصبر يعين المسلم على السير إلى الأمام في طريق نفع دينه ووطنه، وذلك بعد التأمل في ثوابه، والتبصر في عاقبته، والائتساء بالقدوات والنماذج العظيمة، فبالصبر يطمئن قلب العبد وتسكن روحه، ويقوى إيمانه ويزداد يقينه، ولذلك كان الصبر أحد أهمّ الأخلاق التي أرشد الله إليها ورسوله، وورد في الكتاب والسنة فضل أهله وثوابهم، وما لهم في الآخرة من الأجر الجزيل والثواب العظيم.

فهلم بنا نمتع العيون ونرقق القلوب ببعض أخبار الصبر وأحاديثه، نتعرف إلى معناه وأنواعه، ونطّلع على فضيلته ومنزلته، ونحيط علمًا بمجالاته، ونتعرف على الأسباب المعينة عليه، ونتائجه الطيبة في النفس والواقع.

سائلين الله تعالى أن يحفظنا في كل وقت بعينه التي لا تنام، وأن يكلأنا بكلئه الذي لا يرام ولا يضام.

ما هو الصبر؟

الصبر هو حبس القلب عن الجزع، وحبس النفس عن التسخط، وحبس اللسان عن التشكي، وحبس الجوارح عن فعل ما يغضب الله -عز وجل-.

وهذا هو الصبر الجميل الذي أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم في قوله: "فاصبر صبراً جميلاً".

قال ابن عباس رضي الله عنهما -يبين ذلك-: الصبر الجميل هو ما لا شكوى فيه إلى أحد غير الله تعالى.

وقال عبد الأعلى بن الحجاج رحمه الله: الصبر الجميل هو ما يكون معه صاحب المصيبة في القوم حيث لا يُدرى من هو.

إنّه لحسن صبره لا يظهر أي رجل هو من بينهم.

إنّ الصبر الجميل هو الصبر المطَمئِن الذي لا يصاحبه سُخط ولا قلق، ولا الشك في صدق الوعد الذي وعده العبد على سعيه وعمله.

صبر الواثق من العاقبة، الراضي بقضاء الله وقدره، الشاعر بحكمته من وراء الابتلاء، الموصول بالله المحتسب لكل شيء عنده مما يقع به[١].

قال علي رضي الله عنه: إن من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك[٢].

وبهذا لا ينال أحدٌ أجر الصبر إلا إذا حفظ قلبه، ولسانه، وجوارحه عن الشكوى لغير الله.

أما الشكوى لله فلا حرج فيها على الإطلاق.

فالتحقيق أن الشكوى نوعان: شكوى إلى الله وشكوى من الله، أما الشكوى إلى الله تعالى فلا بأس على صاحبها أبداً ولا مؤاخذة عليه فيها، كيف وقد لجأ إليها أنبياء الله ورسله وصحابة النبي والصالحون من أمته؟

---

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٣٠).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص٢٦٤).

ألم يقل الله -عز وجل- عن نبيه أيوب -عليه السلام-: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ} [ص: ٤١، ٤٢]

وقال سبحانه عن نبيه يعقوب -عليه السلام-: {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[يوسف: ٨٦]

وقال عز من قائل عن نبيه نوح -عليه السلام-: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ}[القمر: ١٠، ١١].

وقال عن أفضل رسله وخاتم أنبيائه نبينا -صلى الله عليه وسلم-: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان: ٣٠].

فهذه شكوى إلى الله، وهي عبارة عن رجاء ودعاء ورغبة والتجاء.

لا بأس على الإطلاق أن يلجأ العبد إلى هذا، بل هو الحق والخير والهدى؛ أن يلجأ إلى الله ويرغب إليه، ويناديه، ويناجيه.

مددت يد الرجاء والناس قد رقدوا وبت أشكو إلى مولاي ما أجد

وقلت يا أملي في كل نائبة يا من عليه لكشف الضر أعتمد

أشكو إليك أمورًا أنت تعلمها ما لي على حملها صبر ولا جلد

لقد مددت يدي بالذل مفتقرًا إليك يا خير من مدت إليه يد

فلا تردنّها يا رب خائبة فبحر جودك يروي كل من يرد

قال ربّنا – عز وجل- عن زكريا عليه السلام: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا}[مريم: ٣ – ٦]

ولذلك جاءتهما الإجابة والتلبية سريعة من الله: وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)[الأنبياء: ٨٩، ٩٠]

هذه هي الشكوى إلى الله، وهي كما ترى — عزيزي القارئ – رغبة ورجاء وتقرب وتزلّف إلى الملك – سبحانه وتعالى– فهي في الحقيقة قُربى لا شكوى.

وعلى الضد منها تماماً الشكوى من الله؛ فإنها سخط وتضرّم وتبرّم من أقدار الله –عز وجل!

نسمع هذا من بعض أهل البلاء الذين نزلت بهم بعض الأقدار المؤلمة، فتظهر هذه الشكوى على ألسنتهم في تعبيرات شتى؛ فمن قائل: أما وجد الله بين السماء والأرض من خلقه إلا أنا؟

ومن قائل: هي كل بلوى في الدنيا تنزل على فلان، أليس في الدنيا إلا فلان، كل مصائب الدنيا على رأس فلان، أليس هناك غيري، أما وجدت إلا أنا، وهكذا.

وربما لا تظهر هذه الألفاظ على الألسن، لكنّ القلوب تكنّها وتحويها، والعبارات تحوم حولها وتلفت الأسماع رغمًا إليها في لحن قولها، كما جاء رجل يوماً إلى الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله يشكو إليه شدة حاجته وفقره، فأكثر وأطال، حتى أحس أبو حامد منه سخطاً ونقمة على الرحمن جل جلاله، فأراد أن يرده الى صوابه، لكن بطريقة حسنة سهلة راشدة، فقال: يا فلان! إني أعرف رجلاً من أهل اليسر والغنى في مكان كذا وكذا وقد ابتلاه الله بالعمى، فهو يريد عيناً يبصر بها، أتعطيه إحدى عينيك ويعطيك عشرة آلاف؟ فأجاب الرجل على الفور: لا.

قال أبو حامد: أفتعطي الكسيح رجلاً بعشرة آلاف؟

قال: لا.

قال أبو حامد: فتعطي الأشل يداً بعشرة آلاف.

قال: لا.

قال أبو حامد: أفتعطي الأصم أذنًا بعشرة آلاف؟

قال الرجل: لا.

واستمر الإمام يعدّد على الرجل نعم الله الظاهرة فقط، كلّ ذلك والرجل يقول: لا، ثم قال أبو حامد: يا هذا إنّ معك من الأموال بحساب ما يظهر عليك من نعم الله ما يزيد على ألف ألف، فكيف بما خفي؟! يقول له: أنت ملياردير، ومثلك لا تحق له الشكوى. ورحم الله الذي قال:

لا تسألن بُني آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

وقال آخر:

فإذا شكوت إلى ابن آدم حاجة فإنك تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

ولذلك إذا نزلت بأحد فاقة من فقر أو بلاء أو غيرها فأنزلها بالله قضاها الله له، ومن نزلت به حاجة فأنزلها بالناس لم يقضها الله له أبداً.

هذا سرٌّ من أسرار قبول الدعاء وتفريج الكروب والإخلال به هو سبب عدم استجابة الله لنا في كثير من أدعيتنا، ولا يعرفه الكثيرون، وهو أننا ننزل حوائجنا بالنّاس أولاً ونتذكر الله آخراً.

هذا إذا تذكرناه.

وبرهان ذلك ما روى أبو داود بسند صحيح عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى إما بموت عاجل أو غنى عاجل"(٣).

هذا هو تحقيق مسألة الشكوى أنها نوعان: شكوى إلى الله وهي لا تنافي الصبر بل تدعمه وتقويه، وشكوى من الله وهي تضاد الصبر وتجافيه وتنافيه.

أقسام الصبر: ولمكانة الصبر في الإسلام نجده يدخل في كلّ جانب من جوانبه، ففي الطاعة صبر، وفي المعصية صبر، وفي حال الرخاء صبر، وفي حال الشدة صبر، ولذلك من المناسب أن نشير إلى أنّ الصبر ينقسم في مجمله إلى ثلاثة أقسام: صبر على المأمور، وصبر عن المحظور، وصبر على المقدور.

صبر على المأمور: أما الصبر على المأمور فهو الصبر على طاعة الله -عز وجل-، فالطاعة تحتاج إلى صبر، لأنّ فيها تكليفًا يختبر الله به عباده، ليعلم سبحانه من يقوم به ومن يهمله، كما قال الله -عز وجل-: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: ٤٥]

فالطاعة تحتاج إلى صبر ومجاهدة ومرابطة ومصابرة حتى تؤتي ثمارها بإذن ربها، وأن يصبر العبد كذلك على أدائها على الوجه المشروع برضا ومحبّة، وأن لا تكون آلية، ميكانيكية، يؤديها العبد ولا يحس حلاوتها ولا يذوق لذتها، أمّا من أقبل على الطاعة وهو لها محبّ وبها عارفٌ ولآثارها ملتمسٌ، فإنّه يذوق من حلاوتها ويجد من راحتها ما يطيب له قلبه وتقر له عينه، ولذلك قال من قال من علماء السلف: عالجت قيام الليل سنة ثم استمتعت به عشرين سنة فالطاعة تحتاج إلى صبر حتى تنتج لذتها وحلاوتها، "فوا أسفاه وواحسرتاه، كيف ينقضي الزمان وينفد العمر والقلب محجوب ما شمّ لهذا رائحة، وخرج من الدنيا كما دخل إليها، وما ذاق أطيب ما فيها، بل عاش فيها عيش البهائم وانتقل انتقال المفاليس، فكانت حياته عجزًا وموته كمدًا، و معاده حسرة وأسفًا، اللهم فلك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك!"(٤).

والمطيع يحتاج إلى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال:

---

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٢٧) والحاكم (١/ ٤٠٨) والبيهقي (٤ / ١٩٦)، وانظر الصحيحة (٦ / ٦٧٦).

(٤) طريق الهجرتين (ص٢١١)، ابن القيم، ط السلفية.

أ- قبل الطاعة أي العمل: وذلك بتصحيح النية والإخلاص والصبر على شوائب الرياء، وهو من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكائد النفس؛ وقد نبه النبي صلوات الله عليه إذ قال:"إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى"(٥).

ب- أثناء العمل: كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله...فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ، ولعله المراد بقوله تعالى:"نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا"(العنكبوت ٥٨) أي صبروا إلى تمام العمل؛

جـ- بعد الفراغ من العمل: إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر على النظر إليه بعين العجب، كما قال تعالى "وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ" (محمد٤٣)(٦).

صبر عن المحظور: القسم الثاني من أقسام الصبر: صبر عن المحظور، وهو الصبر عن المعصية والذنوب والسيئات، فبهذا الصبر يحجز العبد نفسه الأمارة بالسوء عن ارتكاب المعصية، ولا يسارع إليها أول ما تدعوه، بل يجاهدها ويجاهد شيطانها، وهذا إنما يتأتي بالصبر، أن يكون للمرء عزم فلا يسارع إليها، وأن يكون له قوة تذكّر نفسه الخير وتبصرها به، وتحذّرها من الشر وتنذرها إيّاه، وتطلعها على عواقب الأمور حين تذهب حلاوة المعصية وتبقى حسرتها وندامتها، وأن تعظها بأحوال السابقين ممن نزلت به عقوبة الله عليهم جرّاء معاصيهم.

بهذا يحصل الإنسان على الصبر من نفسه فتمتنع عن المعصية وتقلع عنها.

إنّ الله عز وجل أعزّ وأكبر من أن تنفعه طاعة العبد أو تضره معصيته، وهو القائل في الحديث: "يا عبادي! إنّكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني"(٧)، بل هو الغنيّ سبحانه، إنما النفع والضرّ عائد على العبد، فلينظر كل امرئ ما ينفعه فيأتيه والله مثيبه على ذلك، وما يضرّه فيجتنبه، والله يأجره على ذلك، أفبعد هذا فضل؟! فسبحان الوهّاب!

صبر على المقدور: القسم الثالث: هو الصبر على المقدور، بالصبر على أقدار الله مما يصيب الله به عباده من الأمراض والأوجاع وجميع المصائب، وهذا هو محك الإيمان ومختبر الإسلام والاستسلام والإيقان، ولذلك

---

(٥) رواه البخاري (١)، ومسلم (٦٤).

(٦) الإحياء (٤/٦٢)، بتصرف.

(٧) رواه مسلم (٢٥٧٧).

جاء الفضل فيه في القرآن العظيم وسنة النبي الكريم كثيرًا جدًّا وحثت عليه الآيات والأحاديث والآثار عن السلف وسارع فيه المتنافسون وفاز في دربه المتسابقون.

إنّ البلاء سُنَّة الله الجارية في خلقه وهو قرين العبد ما دام حيًّا، تنزل به المصائب وتحط عليه الآلام، ويختبر بها في نفسه وماله وأهله وولده، وربما في دينه، وعلى قدر دينه يشدّد له في البلاء أو يخفف: عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ – رضي الله عنه – قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً؟ ، فَقَالَ: "الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلابَةٌ ، زِيدَ فِي بَلَائِهِ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ ، وَمَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ ، حَتَّى يَمْشِي عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ"[٨].

هذه فلسفة المصائب للمؤمن؛ أنها –أولًا– من الله، وأنها –ثانيًا– لاختباره في صبره على أقدار الله، وأنها – ثالثًا – طريقه إلى السعادة وزيادة، إن قابلها بما يتوجب على المرء أن يقابل شيئًا أتاه من عند الله، فإن جزع وسخط كان له السخط، كما في الحديث: وَقالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "إنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاَءِ ، وَإنَّ اللهَ تَعَالَى إذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلاَهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ"[٩].

وعلى المؤمن أن يرضى بقضائه تعالى، ويعلم أنه لا مُعَقِّبَ لِحُكْمه، وليتضرع إلى الله دومًا لكشف المصيبة، وليتأمل في دروسها وعبرها، والحكمة منها.

(٨) رواه أحمد (١٤٨١) وغيره، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٢).

(٩) رواه الترمذي وغيره وصححه عن أنس، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١١٠).

فضل الصبر ومكانته

ذكر الله تعالى الصبر في تسعين موضعاً من القرآن الكريم، وكفى الصبر وأهله بهذا شرفًا وفضلاً، وحسبهم بذلك حثًّا عليه وترغيبًا فيه، ولا نستطيع في مقامنا هذا أن نشير إلى جميع هذه المواضع، لكن نذكر منها قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠]

وأول ما تنتبه له الفكرة في هذه الآية الكريمة هو فعل الأمر الذي يفيد الوجوب!

فالصبر ليس نافلة، ولا مستحبًّا، لا ، إنما هو واجب، ففرضٌ على العبد أن يصبّر نفسه على تنفيذ طاعة الله، واجتناب معصية الله، وعدم الجزع عند ابتلاءات الله.

ومن الآيات الموضحة لمكانة الصبر قوله تعالى: "ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور". لا يوفق للصبر إلا أهل العزائم، وهو شيمة طلاب المعالي!

وقال -عز وجل-: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: ١٠].

وهذه الآية من الآيات العظيمة التي تكشف عن أجر الصابرين عند الله، ، إنّه بغير حساب، ليس على قدر البشر، بل على قدر الله - عز وجل - الذي لا يتصوّر عطاءه عقلٌ فيقدّره!

ومن أعظم ما يوضّح مكانة الصبر ويبين شرفه — إن لم يكن أعظمه- قوله -عز وجل-: {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } [الأنفال: ٤٦]، فيكفي الصبر شرفًا أنه المؤهل الذي يستحق به أصحابه معية الله وصحبته.

لقد ذهب الصابرون بالأجر الجزيل في الدنيا والآخرة!

وكيف لا ؟ وقد روى مسلم من حديث أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله: "الصبر ضياء"[١٠].

الله ! أرأيت إلى هذا التعبير: "والصبر ضياء"؟! يعني يضيء للإنسان طريقه ليرى الجادّة فيسلكها.

---

(١٠) أخرجه مسلم (٥٥٦).

عندما تحتلك الظلمات وتشتد الكربات يهدي الصبر صاحبه إلى الحق، ومن ثمّ أمر الله -عز وجل- خلقه بالاستعانة به، فقال سبحانه: "واستعينوا بالصبر"، فهو ضياء للإنسان في قلبه، وضياء له في طريقه ومنهاجه وعلمه، فكلما سار العبد إلى الله على طريق الصبر زاده الله هدى وضياء وبصيرة(١١).

إنّ الصبر رفيق العبد في جميع أحواله وروى مسلم من حديث صهيب -رضي الله عنه- أن النبي قال: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن".(١٢).

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي قال: "وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر".(١٣)

الله ! من رضي فله الرضا، ومن صبر فله الخير كله، ولنا في السابقين الصادقين الأسوة والقدوة، أين الذين صبروا ورضوا بما آتاهم الله من فضله فمحمد صلى الله عليه وسلم إمامهم إلي الجنة.

أين الذين صبروا عن المعصية فاجتنبوها وقد اقتدروا عليها، ولم يقربوها مخافة الله، فيوسف -عليه السلام- إمامهم إلي الجنة.

أين الذين صبروا في البلاء وقابلوا قدر الله فيه بما أحب، فأيوب -عليه السلام- إمامهم إلي الجنة.

أيها الحبيب! من علامات حب العبد لله: أن يكون صابراً، فالصبر من آكد المنازل في طريق المحبة، وألزمها للمحبين، فإنَّ بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب، يُعلم صحة محبته، ولهذا كانت محبة أكثر الناس كاذبة، لأنهم كلهم ادعوا محبة الله تعالى، فلما امتحنهم بالمكاره، ظهروا على حقيقتهم، ولم يثبت إلا الصابرون، فلولا تحمّل المشاق، وتجشم المكاره، بالصبر، لما ثبتت صحة محبتهم، انظر رعاك الله، كيف وصف الله تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه، فقال عن حبيبه أيوب: { إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً }، ثم أثنى عليه قائلاً: { نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}، وأمر الله أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه وأخبر أنَّ صبره به وبذلك تهون جميع المصائب فقال: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } وقال: { وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ } وأثنى الله

(١١) شرح رياض الصالحين (٤ / ١٦).

(١٢) أخرجه مسلم (٧٦٩٢).

(١٣) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (٢٤٧١).





على الصابرين أحسن الثناء فقال: { وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}.

ونعود فنردد ما قال سيد الصابرين صلى الله عليه وسلم: "وما أُعطي أحدٌ عطاءً خير وأوسع من الصبر"[١٤].

وقال سبحانه: { وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ }.

فهنيئاً لهم بشارة ربهم، وهنيئاً لهم: { يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}"[١٥].

وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي وسنده حسن من حديث أنس أن النبي قال: "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط"[١٦].

وهذا الجزاء لمن صبر الصبر الجميل الذي أشرنا إليه في البداية، فمن كان حاله كذلك نال هذا الأجر والثواب والفضل، فليس كل أحد على هذه الدرجة ليس أهل الصبر كلهم سواء في تلقي أمر الله وقدره، بل يختلفون في أحوالهم ويتباينون في مواقفهم، ولذلك كان تلقي البلاء بالشكر والرضا هو محك اختبار الإيمان وبه تستبين درجة العبد ويظهر قدره كما قدمنا في حديث سعد بن أبي وقاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه"[١٧] فلا ريب أن ينزل الصبر تلك المنزلة من كتاب الله وسنة رسوله، حتى قال علي رضي الله عنه: "ألا إنَّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس باد الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له"[١٨].

---

(١٤) رواه مسلم (١٠٥٣).

(١٥) يحبهم ويحبونه، خطبة للشيخ خالد الراشد.

(١٦) أخرجه الترمذي (٢ / ٦٤) و ابن ماجه (٤٠٣١)، وانظر: الصحيحة (١ / ٢٢٧).

(١٧) تقدم تخريجه.

(١٨) الصبر والثواب عليه (ص٢٤)، ابن أبي الدنيا.

هذه مكانة الصبر، وتلك فضائله، ولذا تنافس المتنافسون في تحصيل هذا الثواب العظيم، أنبياء الله والصالحون، ومنهم نبي الله أيوب الذي لبث في البلاء ثمانية عشر عاماً ومع ذلك استحيا أن يسأل الله العافية حتى يكون له من النصيب في البلاء قدر ما كان له في العافية ولنستمع إلى شيء من خبره فيما أخرجه الحاكم وابن حبان والطبري والبزار وقال الهيثمي رجال البزار رجال الصحيح من حديث أنس بن مالك أن النبي قال: "إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثَمانِيَ عَشْرَة سَنَة، فَرَفَضَه القَرِيبُ وَالبَعِيدُ، إلا رَجُلانِ مِنْ إخْوَانِهِ كانا مِنْ أخَصّ إخْوَانِهِ بِهِ، كَانَا يَغْدُوانِ إلَيْهِ ويَرُوحانِ، فَقالَ أحَدُهُما لِصَاحِبه: تَعْلَم واللهِ لَقَدْ أذْنَبَ أيُّوبُ ذَنْبًا ما أذْنَبَهُ أحَدٌ مِنَ العَالَمِينَ، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: ومَا ذَاكَ؟ قَالَ: مِنْ ثَمانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ فَيَكْشِفَ ما بِهِ؛ فَلَمَّا رَاحا إلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فقَالَ أيُّوبُ: لا أدْرِي ما تَقُولُ، غَيرَ أنَّ اللهَ يَعْلَمُ أنِّي كُنْتُ أمُرُّ على الرَّجُلَيْنِ يَتَنازَعانِ فَيَذْكُرَانِ اللهَ، فَأَرْجِعُ إلى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُما كَرَاهِيَةَ أنْ يُذْكَرَ اللهُ إلا في حَقّ؛ قال: وكان يَخْرُجُ إلى حاجَتِهِ، فإذَا قَضَاها أمْسَكَت امْرأَتُه بِيَدِهِ حتى يَبْلُغ فَلَما كانَ ذاتَ يَوْمٍ أبْطَأَ عَلَيْها، وأوحِيَ إلى أيُّوب في مَكانِهِ:(ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)فاسْتَبطأَتَهُ، فَتَلقتهُ تَنْظُرُ، فأقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أذْهَبَ اللهُ ما بِهِ مِنَ البَلاءِ، وَهُوَ عَلى أحْسَنِ ما كانَ؛ فَلَمَّا رَأتْهُ قَالَتْ: أيْ بارَكَ اللهُ فِيكَ، هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللهِ هَذَا المبْتَلى، فوالله على ذلك ما رَأَيْتُ أحَدًا أشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إذْ كانَ صحيحا؟ قال: فإنِّي أنا هُوَ؛ قال: وكانَ لَهُ أنْدرَانِ: أنْدَرٌ لِلْقَمْحِ، وأنْدَرٌ للشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللهُ سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كانَتْ إحْداهُما على أنْدَرِ القَمْحِ، أفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حتى فاضَ، وأفرغَتِ الأخْرَى في أنْدَرِ الشَّعِيرِ الوَرِق حتى فاضَ"(١٩).

قال الله تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ } [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

نعم

(١٩) تفسير الطبري (١٠٧/٢٣) ورواه البزار في مسنده (٢٣٥٧)، كشف الأستار، وهو في الصحيحة (١ / ٢٥).

كن عن همومك معرضا ودع الأمور إلى القضا
وانعم بطول سلامة تغنيك عما قد مضى
فلربما اتسع المضيق وربما ضاق الفضا
الله يفعل ما يشاء فلا تكن متعرضا

والمثل الأعلى للمبتلين الصابرين: المصطفى الذي عاش طوال أيامه ولياليه يمشي على شوك الأسى ويخطو على جمر الكيد والعنت يتلمس الطريق لهداية الضالين وإرشاد الحائرين فناله في سبيل ذلك ما لم ينل نبياً فضلاً عن صديق أو صادق.

روى البخاري من حديث عَائِشَةَ – رضى الله عنها — زَوْجِ لنَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِى عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِى إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِى، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِى، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِى، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِى فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِى مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَىَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِىُّ – صلى الله عليه وسلم – بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[٢٠].

وأمتنا الإسلامية –على مر عصورها– لم تخل من نماذج عظيمة وقمم سامقة، في شتى نواحي الحياة، وهم في جانب الصبر كثر، ومن أمثلة الصبر العليا والنجوم في سمائه: بلال بن رباح الحبشي مؤذن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–

وقد كان عبداً لأمية بن خلف فلما بعث رسول الله اتبعه وآمن به وصدقه على ما جاء به فكان أمية يمنعه الطعام والشراب يوماً ويومين حتى يشتد به الجوع والعطش ويخرج به إلى الصحراء في شدة الحر وسط الظهيرة فيجرده من ثيابه ويضعه على الرمضاء ويعذبه ويقول: لا تزال هكذا حتى تكفر بمحمد أو تقول في اللات والعزى خيراً،قال ابن مسعود هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه، هانت على بلال نفسه في

---

(٢٠) أخرجه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥).

الله فأبى إلا أن يغيظ أمية بن خلف وسائر المشركين، كلما قالوا له: لا تزال هكذا حتى تكفر بمحمد يأبى ذلك ويصر أن يتمسك بالإسلام ويعض عليه ويثبت عليه ويأبى إلا أن يغيظ المشركين بالنطق بكلمة التوحيد تحت سياط التعذيب فيقول: أحدٌ أحد، أحدٌ أحد، فهانت عليه نفسه في الله وهان على قومه فجعل أمية بن خلف مولاه الحبل في عنقه وأعطاه غلمان مكة فجعلوا يلعبون به في شعاب مكة وطرقها وهو يقول: أحد أحد [٢١]

ولو ذهبنا نتتبع ما نال التعذيب والابتلاء من أصحاب النبي لأعيانا الحصر، ولكن بحسبنا هذا المثال وما نعلم.

وهذا تابعيّ جليل على خطى الصحابة، إنه أبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمي التابعي الجليل، كان — رحمه الله – من عباد أهل البصرة وزهادهم، حدث بقصة موته — فيما حكى ابن حبّان– عبد الله بن محمد قال: خرجت إلى ساحل البحر مرابطًا وكان رباطنا يومئذ عريش مصر، قال: فلما انتهيت إلى الساحل فإذا أنا ببطيحة —مكان واسع فسيح– وفى البطيحة خيمة فيها رجل قد ذهب يداه ورجلاه، وثقل سمعه وبصره، وما له من جارحة تنفعه إلا لسانه، وهو يقول: اللهم أوزعنى أن أحمدك حمدًا أكافىء به شكر نعمتك التي أنعمت بها علي وفضلتنى على كثير ممن خلقت تفضيلًا، قال عبد الله بن محمد: قلت: والله لآتين هذا الرجل ولأسألنه أنّى له هذا الكلام فهمٌ أم علمٌ أم إلهامٌ ألهمه، فأتيت الرجل فسلمت عليه، فقلت: سمعتك وأنت تقول: "اللهم أوزعنى أن أحمدك حمدًا أكافئ به شكر نعمتك التي أنعمت بها على وفضلتنى على كثير من خلقت تفضيلًا"، فأي نعمة من نعم الله عليك تحمده عليها وأي فضيلة تفضّل بها عليك تشكره عليها؟! قال: وما ترى ما صنع ربي، والله لو أرسل السماء علي نارًا فأحرقتنى وأمر الجبال فدمرتنى وأمر البحار فغرقتنى وأمر الأرض فبلعتنى ما ازددت لربى إلا شكرًا؛ لما أنعم على من لساني هذا.

ويا عبد الله! إذ أتيتني لي إليك حاجة قد تراني على أي حالة أنا، فأنا لست أقدر لنفسى على ضر ولا نفع، ولقد كان معي بنيٌّ لي يتعاهدني في وقت صلاتي فيوضئني، وإذا جعت أطعمني، وإذا عطشت سقاني، ولقد فقدته منذ ثلاثة أيام فتحسسه لي رحمك الله!

فقلت: والله ما مشي خلق في حاجة خلق كان أعظم عند الله أجرًا ممن يمشي في حاجة مثلك، فمضيت في طلب الغلام، فما مضيت غير بعيد حتى صرت بين كثبان من الرمل، فإذا أنا بالغلام قد افترسه سبع وأكل لحمه، فاسترجعت، وقلت: أنّي لي وجه رقيق آتى به الرجل، فبينما أنا مقبل نحوه إذ خطر على قلبي ذكر

---

(٢١) طبقات ابن سعد (٣/٢٣٢).

أيوب النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أتيته سلمت عليه فرد عليّ السلام، فقال: ألست بصاحبي؟ قلت: بلى، قال: ما فعلت في حاجتي؟ فقلت: أنت أكرم على الله أم أيوب النبي؟ قال: بل أيوب النبي! قلت: هل علمت ما صنع به ربه؛ أليس قد ابتلاه بماله وآله وولده؟ قال: بلى قلت: فكيف وجده؟ قال: وجده صابرًا شاكرًا حامدًا، قلت: لم يرض منه ذلك حتى أوحش من أقربائه وأحبائه، قال: نعم، قلت: فكيف وجده ربه؟ قال: وجده صابرًا شاكرًا حامدًا، قلت: فلم يرض منه بذلك حتى صيره عرضًا لمار الطريق –يعني أهلك داره–، هل علمت؟! قال: نعم، قلت: فكيف وجده ربه؟ قال: صابرًا شاكرًا حامدًا، أوجز رحمك الله! قلت له: إنّ الغلام الذي أرسلتني في طلبه وجدته بين كثبان الرمل وقد افترسه سبع فأكل لحمه، فأعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر! فقال المبتلى: الحمد لله الذي لم يخلق من ذريتي خلقًا يعصيه فيعذبه بالنار، ثم استرجع –قال: إنا لله وإنّا إليه راجعون–، وشهق شهقة فمات، فقلت، إنا لله وإنا اليه راجعون، عظمت مصيبتي!، رجل مثل هذا إن تركته أكلته السباع وإن قعدت لم أقدر على ضر ولا نفع، فسجيته بشملة كانت عليه وقعدت عند رأسه باكيًا، فبينما أنا قاعد إذ أقبل عليّ أربعة رجال، فقالوا: يا عبد الله! ما حالك، وما قصتك؟ فقصصت عليهم قصتي وقصته، فقالوا لي: اكشف لنا عن وجهه فعسى أن نعرفه، فكشفت عن وجهه، فانكبّ القوم عليه يقبلون عينيه مرة ويديه أخرى، ويقولون: بأبي عينٌ طالما غضّت عن محارم الله، وبأبي جسم طالما كنتَ ساجدًا والناس نيام، فقلت: من هذا يرحمكم الله؟ فقالوا: هذا أبو قلابة الجرمي، صاحب ابن عباس، لقد كان شديد الحب لله وللنبي صلى الله عليه وسلم، فغسلناه، وكفناه بأثواب كانت معنا، وصلينا عليه، ودفناه، فانصرف القوم وانصرفت إلى رباطى، فلما أن جنّ عليّ الليل وضعت رأسي، فرأيته فيما يرى النائم في روضة من رياض الجنة وعليه حلتان من حلل الجنة وهو يتلو الوحي: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: ٢٤]، فقلت: ألست بصاحبي؟ قال: بلى، قلت: أنى لك هذا؟ قال: إن لله درجات لا تنال إلا بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء مع خشية الله عز و جل في السر والعلانية[٢٢].

---

(٢٢) الثقات لابن حبان (٥/ ٧).

كيف نحصّل الصبر؟

هذه بعض نماذج من حياة الصابرين، وأخبارهم لا تحصى، والسؤال: كيف نكون مع أفراد هذا الموكب الكوكبي الدري والنجم الساطع الضوئي، كيف نكون من الصابرين ونحصل درجتهم ونشرف بمكانتهم ؟

والجواب في نقاط:

أولاً: الاستعانة بالله، فإن صبر المؤمن يكون بالله تعالى، كما قال -عز وجل- {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [النحل: ١٢٧] يعني أنه من لم يصبره الله ويوفقه للصبر لم يصبر، وكذلك ينبغى ان يكون الصبر لله، أي: حبًّا له، وإرادة لوجهه، ورغبة في ثوابه، لا لإظهار قوة النفس أو استجلاب الحمد من الناس، وينبغي أن يكون الصبر مع الله، والصبر مع الله هو أن يكون العبد مع أحكام الله الدينية صابراً نفسه معها سائراً بسيرها مقيماً بإقامتها، حيث كانت، وليس كمن يصبر على تعذيب نفسه في غير مرضاة الله مثل صبر المشركين القائلين: {أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ} [ص: ٦](٢٣).

فالله -عز وجل- هو المعين على الصبر لمن أراد، وهو الموفق الهادي له، كما قال علقمة في تفسير قوله تعالى: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن: ١١] قال -رحمه الله-: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم(٢٤).

وهذه الهداية -أيها الكريم!- هي هداية التوفيق، ومن هذه الهداية: هداية الله عبده إلى الرضا والتسليم، فمن أصابته مصيبة فعلم أنها من قدر الله فصبر واحتسب؛ هدى الله قلبه لليقين، وعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعوضه الله عما فاته من الدنيا هدىً في قلبه ويقيناً صادقاً ويُخلف عليه خيراً مما فاته.

فعلى المؤمن التضرع إلى الله ودعائه لاستجلاب هذه المعونة.

ثانيًا: الإيمان، فالإيمان خير معين، الإيمان بلسم الحياة، وأسّ الفضائل ولجام الرذائل، وقوام الضمائر، وسند العزم في الشدائد، وبلسم العبر عند المصائب، وعماد الرضا والقناعة بالحظوط، ونور الأمل في الصدور

---

(٢٣) فضل الغني الحميد (ص٣٢)، وجنّة المؤمن (١٣٥).

(٢٤) أخرجه ابن جرير في التفسير (٢٨ / ١٢٣).

وسكن النفوس، وعزاء القلوب إذا أوحشتها الخطوب، والعروة الوثقى عند حلول الموت بسكراته العظمي[٢٥].

ولله در معاذ بن جبل وحاله لما أصابه الطاعون، يقول الحارث بن عميرة: طعن معاذ وأبو عبيدة وشرحبيل بن حسنة وأبو مالك الأشعري في يوم واحد، فقال معاذ: إنه رحمة ربكم -عز وجل- ودعوة نبيكم صلى الله عليه وسلم وقبض الصالحين قبلكم، ثم دعا فقال: "اللهم آت آل معاذ النصيب الأوفر من هذه الرحمة"، فما أمسى حتى طعن ابنه عبد الرحمن بِكرُه الذي كان يكنّى به وأحبّ الخلق إليه، فرجع من المسجد فوجده مكروباً، فقال: يا عبد الرحمنّ كيف أنت؟ فاستجاب له فقال: يا أبت! {الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [آل عمران: ٦٠] فقال معاذ: وأنا إن شاء الله ستجدني من الصابرين، فأمسكه ليلة ثم دفنه من الغد، فطعن معاذ، فاشتد به نزع الموت، وقد نزع نزعاً لم ينزعه أحد، وكان كلما أفاق من غمرة فتح عينه ثم قال: رب اخنقني خنقتك، فوعزتك إنك لتعلم أن قلبي يحبك[٢٦]!

هات ما عندك هات *** معي الإيمان يهديني لبحر الظلمات

بلسم الإيمان ينجي *** مركبي والموج عاتي

هل ترى الإعصار يومًا *** هزَّ شُمًّا راسيات؟!

فالإيمان – بعد عون الله وتوفيقه – أعظم الأسباب المعينة على الصبر.

ثالثاً: **أن يتصبر العبد** –يعني يأخذ نفسه بتعلّم الصبر درجة درجة، فيتعوّده ويكون ديدنه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ومن يصبر يصبره الله"[٢٧]، أي: يقويه ويمكّنه من نفسه حتى تنقاد له، ويذعن لتحمل الشدة، فعند ذلك يكون الله معه فيظفره بمطلوبه[٢٨].

---

(٢٥) من خطبة لفضيلة لشيخ علي القرني، بعنوان: سفينة النجاة.

(٢٦) حلية الأولياء (١ / ١٢٧).

(٢٧) متفق عليه، رواه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

(٢٨) فتح الباري (١١/٣٠٤).

إنّ الصبر بالتصبر، وكذلك بقيّة الأخلاق والعلوم والعادات، فالحلم بالتحلّم، والعلم بالتعلّم، والطبع بالتطبّع(٢٩).

فإذا عوّد العبد نفسه الصبرَ تعوّدت، وأخذت به، وتدرّجت في درجاته حتى إنها لتضرب فيه نماذج تشبه المستحيل.

رابعًا: أن يعرف فضل الصبر ودرجة الصابرين؛ فمن عرف فضل الصبر حمَل نفسه عليه حملاً، وينسيه ذلك مرارةَ المصاب والبليّة، كما ورد أن بعض السلف أصيبت أصبعه، فتبسم، فعجب من رآه، وقال: تبتسم وقد انقطع أصبعك؟! فقال: نعم؛ حلاوة أجرها أنستني مرارة ألمها(٣٠).

فإذا تذكر العبد أمثال قوله تعالى: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٦] ، وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٣]، وقول رسول الله قال: "إذا أراد الله بعبد خيرًا عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد شرًا أمسك عليه ذنوبه حتى يوافيه يوم القيامة"(٣١).

فعلم أن المصيبة مكفّرة ورافعة للدرجات وماحية للسيئات، وعلم أنه على درجة عظيمة في القرب من الله تعالى ومشابهة أنبيائه ورسله، وعلى درج الصالحين يسير.

مات عبد الله بن مطرّف، فخرج مطرّف على قومه في ثياب حسنة وقد ادهن، فغضبوا وقالوا: يموت عبد الله ثم تخرج في ثياب مثل هذه مدهناً؟!!، قال: "فأستكين لها وقد وعدني ربي تبارك عليها ثلاث خصال كل خصلة منها أحب إلي من الدنيا كلها؟!

قال الله عزَّ وجلّ {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: ١٥٧،١٥٦] .. فأستكين لها بعد هذا؟"(٣٢).

إنّ عُمْر الدنيا قصيرٌ وكنزها حقيرٌ، والآخرةُ خيرٌ وأبقى فمن أُصيب هنا كُوفِئ هناك، ومن تعب هنا ارتاح هناك، أما المتعلقون بالدُّنيا العاشقون لها الراكنون إليها، فأشدَّ ما على قلوبهم فوت حظوظُهم منها وتنغيصُ

---

(٢٩) هذه أخلاقنا (ص٨٠)، محمود محمد الخزندار، دار طيبة للنشر والتوزيع.

(٣٠) مدارج السالكين (٢ / ١٦٧).

(٣١)أخرجه الترمذي (٢/٦٤)، والبيهقي في الأسماء (ص ١٥٤)، وهو في الصحيحة (٣/٢٢٠).

(٣٢) صفة الصفوة (٢/ ١٣٢)

راحتهم فيها لأنهم يريدونها وحدها فلذلك تعظُم عليهمُ المصائبُ وتكبرُ عندهمُ النكباتُ؛ لأنهمْ ينظرون تحت أقدامِهم فلا يرون إلاَّ الدُّنيا الفانية الزهيدة الرخيصة(٣٣).

إنّ المصيبة زائلة ولو بعد حين، وسيذهب ضيقها ويبقى أجرها، فليهنأ المسلم ويسعد، ولا يحزن نفسه ويذهبها حسرات، وهذه رسالة إلى كل مُبتلى، وكل الناس مُبتلى ومُصاب: هوّن على نفسك، فمهما كانت شدة البلاء سيأتي الفرج من الله لا محالة، كان محمد بن شبرمة إذا نزل به بلاء، قال "سحابة صيف ثم تنقشع"(٣٤).

اصبِر قليلًا وكُن بالله معتصِمًا ... لا تَعْجلنّ فإنّ العجزَ بالعَجَل

والصبرُ مثلُ اسمه مُرٌّ مَذَاقُهُ ... لكنْ عواقبه أحلى من العَسَلِ

خامسًا: التعرف إلى ضد الصبر، فالضد يظهره حسنه الضد وبضدها تبين الأشياء، إلى أين يسير الجزع بالعبد؟ حين تأتيه المصيبة فيتلقاها بالسخط، لنقف على مثل قول النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم -: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»(٣٥).

إنّه مثال لأقوال وأفعال قوبلت بها المصيبة، فماذا كانت العاقبة؟! الطرد من بستان الأخيار (ليس منّا)، هو من الجاهليّة، ليس من الإسلام ولا من أخلاقه!

لنتعرف على مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»(٣٦).

إنّ السخط على أقدار الله والجزع حيالها لا يغيّر من واقعها شيئًا، إنه يزيد من هَوْلِهَا، بل ويضيف إليها مصيبة أخرى، هي أعظم، لأنها تكون وقتئذٍ مصيبة في الدّين والإيمان.

سادسًا: المعرفة بطبيعة الحياة الدنيا:

---

(٣٣) لا تحزن (ص٥٣) القرني.

(٣٤) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (١٩/٢).

(٣٥) أخرجه البخاري (١٢٩٧) ومسلم (١٠٣).

(٣٦)أخرجه مسلم (٦٧).

الابتلاء لا محيص منه، فالدنيا دار امتحان، وإنّ المسلم ليبتلى ما دام حيًّا، فعليه أن يقابل امتحان الله له برباطة جأش وصبر نفس حتى يكون مطيّة له إلى الفوز برضا الله وسفينة للعبور إلى دار النجاح والنجاة.

إنه لا يسلم من الابتلاءات والصراعات إلى أن يموت؛ صراع مع الواقع، صراع مع النّفس، صراع مع الآخرين، صراع مع جميع من في الحياة، إنّ المؤمن لا ينفكّ عن المطالبة بالطاعة وهو يحتاج معها إلى صبر، ولا تتركه نفسه الأمارة بالسوء يعاونها هواه وشيطانه إلى ذلك بل يجذبه جميع هؤلاء إلى حفرة المعصية وهو في ذلك يحتاج إلى الصبر، ولا تخلو الدنيا من منغصات العيش وأولياء السوء وأصحاب الشرور ينازعونه ولا يتركونه، فلكلّ هذا ينبغي على المرء أن يعدّ عدّة الصبر، وأن يكون على تهيؤ لها أنّها لا تنتهي ولا تنقضي ما دامت الدنيا، فليست الدنيا المدينة الفاضلة ولا دار الخلوّ من المضايقات.

إنّ المصائب والابتلاءات سُنَّة الله في خلقه، {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً} [فاطر: ٤٤].

سابعًا: الاقتداء بأهل الصبر والعزائم:

فليتعرّف المرء على سير الصالحين من قلبنا وليقرأ في حياتهم، ويطالع أخبارهم، فإنه لا شك واجد من سيرهم زادًا طيبًا للائتساء بأحوالهم في التصبّر على الطاعة وقد مرّ قال شريح رحمه الله : إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات؛ أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي عليه، وأحمده إذ رزقني الصبر عليه، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لما أرجوه فيها من الثواب، وأحمده إذ لم تكن في ديني.

وما أجمل قول ابن القيم "يا مخنث العزم، أين أنت والطريق؟! .. طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورُمِيَ في النار الخليل، وأضجع للذبح إسماعيل، وبيعَ يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونُشِرَ بالمنشار زكريا، وذُبحَ السيد الحصور يحيى، وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داوود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ... وتزهى أنت باللهو واللعب؟!"[٣٧].

---

(٣٧) الفوائد (١/ ٤٢).

بل من تأمّل في خلق الصبر وجد القدوة فيه أعز وأشرف من ذلك، فإن الصبور اسم من أسمائه تعالى ومعناه أنّ الله لا يتعجل في العقاب عندما يسرع الناس بالمخالفة، فعلى المؤمن أن يتحلى بالصبر من هذا الباب، باب التخلّق بأخلاق الله(٣٨).

ثامنًا: التفكّر في النّعم الكثيرة التي يتمتع العبد بها حال السرّاء:

أخي المبتلى! لقد أنعم الله عليك كثيرًا، فإن كنت عند حسن ظنه في نعمائه، فكن عند حسن ظنه بك في بلائه، وإن سلبت منك واحدة، فلا تزال نعم الله تحوطك، لما ابتلى الله أيوب، عليه السلام، بذهاب الأهل والمال والولد، ولم يبق له شيء، أحسن الذكر، ثم قال: أحمدك رب الأرباب، الذي أحسنت إلي، أعطيتني المال والولد، فلم يبق من قلبي شعبة، إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله مني، وفرَّغت قلبي، ليس يحول بيني وبينك شيء، لو يعلم عدوي إبليس بالذي صنعت، حسدني. قال: فلقي إبليس من ذلك منكرًا(٣٩).

وقال أيوب -عليه السلام-: يا رب! إنك أعطيتني المال والولد، فلم يقم على بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك، وأنه كان يوطأ لي الفراش فأتركها وأقول لنفسي: يا نفس، إنك لم تخلقي لوطء الفرش، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك(٤٠).

هذه بعض الأسباب المعينة على الصبر ويبقى توفيق وهداية المولى -سبحانه وتعالى- الذي لا يكون شيء إلا بإذنه.

---

(٣٨) انظر في هذا المعنى كتاب خلق المسلم (ص١٣١)، محمد الغزالي.

(٣٩) انظر الدر المنثور (٤/٥٨٩).

(٤٠) تفسير ابن كثير (٥/٣٦٠).

معوقات عن الصبر

وكما أن للصبر معينات تعين عليه، فكذلك هناك عقبات تقف في طريقه حتى لا يؤتي ثمرته، فينبغي على العبد أن يتفطّن لها حتى لا تعيقه عن الوصول إلى غايته، ومن هذه المعوقات والآفات:

١- **الاستعجال**: بأن يكون صبر المرء قليل، واستعجاله الفرج دائم؛ فإن جاء وإلا انقلب على عقبيه، بل ينبغي أن يكون للمرء عزيمة على الصبر مهما طال، ولا يتعجّل، كما قال الله تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ} [الأحقاف: ٣٥].

وفي الحديث: "والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون"[٤١]، لا داعي للاستعجال، ستصل إلى مبتغاك يومًا، فاصبر.

٢- **الغضب**: فإن الغضب ينافي الصب، وينتقل بالإنسان إلى حال يتعجّل فيها الانتقام، أو يظهر فيها السخط والتبرّم، ويفوّت عليه هذه القيمة الكبيرة للصبر وعاقبته الحسنة، ومن ثم قال الله تعالى لنبيه: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ } [القلم: ٤٨ - ٥٠]

٣- **الحزن والضيق واليأس**: وقد حذر الله من هذه المعوّقات في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} [النحل: ١٢٧]، وهو دليل على أنّ الصبر ينفي الحزن ويذهبه، وأن الحزن ينافي الصبر ويضيعه، وقال تعالى يأمر بالتعلّق برحمة الله والتبصّر بعواقب الأمور وإخراج اليأس من القلوب عن طريق التماس المصبّرات: { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠)} [آل عمران: ١٣٩، ١٤٠]. فلا تيأس وتستسلم لتثبيط الشيطان، فإنه لا {يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر: ٥٦].

---

(٤١) رواه البخاري (٦٩٤٣).

لا تيأسنّ وإن طالت مطالبة ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

خاتمة

الصبر عن الله!

ومن الجدير أن نلفت الأنظار إلى نوع دقيق من أنواع الصبر عرفه أهل العبادة والقرب، وجهله كثير من النّاس، ألا وهو الصبر عن الله، وهو نوع مذموم، فإذا كان الصبر الذي تحدّثنا عنه كلّه هو صبر محمود مطلوب، فهذا الصبر مذموم، حُكي عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر أيه أشد؟ فقال: الصبر في الله تعالى؛ فقال: لا، فقال: الصبر لله، فقال: لا، فقال: الصبر مع الله، فقال: لا، فقال: فأيش؟ قال: الصبر عن الله؛ فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف[٤٢].

وقد قيل في معنى قوله تعالى {اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا} [آل عمران: ٢٠٠] اصبروا في الله، وصابروا بالله، ورابطوا مع الله.

وقيل: الصبر لله غناء، والصبر بالله بقاء، والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء[٤٣].

وفي معناه قول الشاعر:

والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر في سائر الأشياء محمود

وقيل -أيضًا-:

الصبر يجمل في المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يجمل(٤٤)

فيا من لا يزال يتخبط في غيه بعيدًا عن رضا ربه: إنك -يا مسكين- محروم!

يالشدة صبرك عن محبوبك، ينعم عليك بكلّ هذه النّعم وأنت ما تزال في سكرتها غافلًا عمن أنعم بها عليك؟ تالله لو تعي حقيقة ما تفعل لسقطت ميتًا!

---

(٤٢) تاريخ دمشق (٦٦/٦١).

(٤٣) انظر: عدة الصابرين (٤٧،٤٦).

(٤٤) إحياء علوم الدين (٣/١٨١).

نسأل الله أن يصبرنا على طاعته، وأن يصبّرنا عن معصيته، وأن يجعلنا من الصابرين على مقدوره، وأن يجنّبنا الصبر عنه، فإنّ الصبر مطيّة النّجاح في كلّ أمر:

ولكم قرّب البعيدَ لك الصبرُ .. وكم بعّد القريب ارتغاب.

اللهم! خذ بأيدينا إليه أخذ الكرام عليك، وارزقنا الخير حيث كان، وجنّبنا الشرّ.

مراجع

الكتب

١) عدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، لابن قيم الجوزية، دار الأرقم، لبنان.
٢) شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين، باب الصبر، ط. الوطن.
٣) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة، باب الصبر، ط. التوفيقيّة.
٤) خلق المسلم، محمد الغزالي، دار الريان.
٥) الصبر جنّة المؤمن، هيا بنت ناصر بن عبد الله الراشد، مؤسسة رسالة البيان.

المواد الصوتية:

١) سفينة النجاة، الشيخ علي القرني.
٢) حلاوة الصبر على البلاء، د. عمر عبد الكافي.
٣) فصبرٌ جميل، الشيخ محمد حسان.
٤) منزلة الصبر، الشيخ أبو إسحاق الحويني.
٥) الصبر على طاعة الله، الشيخ محمد صالح المنجد.
٦) يحبّهم ويحبّونه، الشيخ خالد الراشد.

المقالات:

- الصبر على البلاء، بقلم الشيخ هاني حلمي، موقع الكلم الطيب.
- عشرة أسباب تعين على الصبر على البلاء، الشيخ عبد العزيز المطيري، موقع طريق الإسلام.
- الصبر على الطاعة، الشيخ أبو بكر الجزائري، موقع معرفة الله.
- فضل الصبر عن المعاصي، موقع الكلم الطيب.
- أسباب الصبر عن المعصية، د. محمد راتب النابلسي، موقع موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية.

---

* وضعت هذه المراجع، كي يستفيد القارئ من قراءتها، أو بعضها، لتمدّه بجرعات جديدة قويّة، عن الصبر.

الفهرس

تم بحمد الله